فصلية اللسان المبين(بحوث في الأدب العربي)
(علمية محكّمة)
السنة السادسة، المسلسل الجديد، العدد الثامن عشر، شتاء ١٣٩٣، ص ١٤٦-١٢٢

الصراع بين الحياة والموت فى شعر أبي العتاهية وناصرخسرو*

عباس يداللهي
أستاذ مساعد بجامعة شهيد چمران- اهواز
سردار أصلاني
أستاذ مساعد بجامعة اصفهان

الملخّص

يتناول البحث دراسة ظاهرة الحياة والموت في شعر أبىالعتاهية وناصرخسرو القبادیانی فی إطار الأدب المقارن. لا ريب أنّ موضوع الحياة والموت من أهمّ المحاور الزهدية عند الشعراء الزّهّاد. تطرّق هذان الشاعران إلى الكشف عن مفهوم الحياة والموت فى شعرهما الزهدى. فإذا أمعنا النظر فى شعرهما وجدنا أنّ أباالعتاهية خاف من الموت خوفاً شديداً حيث حاول طيلة الحياة الدنيا أن ينجو بنفسه من براثن الموت، ولكنه لم يستطع وأخيراً اتخذ الموت أداة للاعتبار وإسداء النصح فبقى مستسلماً أمام سطوة الموت. كذلک تطرّق ناصرخسرو إلى هذا الموضوع فى شعره الزهدى وآمَنَ بحتمية الموت معتمداً فى هذا المجال على الأسس الدينية فظلّ ينصح الإنسان بالتزوّد من الصالحات والاستعداد للرحيل الأعظم.

الكلمات الدليلية: الحياة والموت، أبوالعتاهية، ناصرخسرو، الأدب المقارن.

-- تاريخ الوصول: ١٣٩٢/٠٢/١٦ تاريخ القبول: ١٣٩٢/١٠/٠٨
عنوان بريد الكاتب الالكترونى: **yadollahi -a@yahoo.com**

١ – المقدمة

تعتبر قضية الحياة والموت من الموضوعات التي شغلت بال الإنسان منذ الأزمنة الغابرة، وضربت هذه الظاهرة بجذورها في كيان الإنسان وافترشت مساحة كبيرة من ذاكرته وتعلّق تفكيره ومعتقداته وسلوكياته بهذه الفكرة. فمن ثمّ فكّر فى الموت وتأمّله وفى النهاية وصل إلى أنّ الموت حقيقة محتومة لا مناص منها ومورد لا بدّ من وروده «كما أنّ الموت انقطاع لهذه السلسلة المتصلة من الأيام والليالي التي تسمّى الحياة» (الشورى، ١٩٩٥م:١٤). لقد وقف الشعراء والأدباء تجاه هذا اللغز المعقّد عاجزين عن فهم رموزه وما تنطوى عليه هذه الظاهرة من الأسرار المكتومة والدفائن، وذلک لأنهم تمتعوا بمواقف نافذة عميقة تدعمها الحقائق والمسلمات أكثر من الآخرين.

بما أنّ العلاقة الجدلية بين ثنائية الحياة والموت تجعل الحياة مرادفة للموت والموت مرادفاً للحياة حيث كل لحظات الحياة تحمل في طياتها معنى الموت والفناء، فلا غرو أن يتحير الإنسان في أمر هذا اللغز المعقّد الذي ينتهي به إلى العجز عن مواجهة هذه الحقيقة الثابتة. فمن هذا المنطلق، أرّقت الإنسان وبعثت فى نفسيته الشعور بالخوف فليس «أقسى على الموجود الذى يملک الحرّية ويحنّ إلى الأبديّة وينزع نحو اللانهائية، من أن يشعر بأنّ لحريّته حدوداً وأنّ الزمان ينشب أظفار الفناء فى عنقه، وأنّ التناهى هو نسيج وجوده» (زكريا، د.ت: ١٧).

إنّ المتأمل فى هذه الثنائية يجد أنّ معظم الناس يتجاهلون قضية الحياة والموت وهذا لا يعنى أنّها ليست مهمّة، وأنها ليست قائمة، بل يتهربون من مواجهتها، ولا يفطنون إليها، إلاّ فى غمرة الهمّ الذى هو تربة خصبة لمثل هذه الخواطر الحالكة (شاهين، ١٩٨٠م: ٢٧٧).

اعتمدنا فى البحث هذا على المدرسة الأمريكية من مدارس الأدب المقارن عثوراً على أوجه الاختلاف والاشتراک لهذه الثنائية في شعر أبي العتاهية وناصرخسرو القبادياني.

١–١–خلفية البحث:

اهتمّ الباحثون بشعر أبى العتاهية وناصرخسرو من جوانب مختلفة وقاموا بدراسات قيمة في هذا المجال، لكنهم لم يدرسوا ظاهرة الحياة والموت فى شعرهما خاصة فى إطار الأدب المقارن، فلم تجر دراسة مستقلة قائمة بذاتها حتى الآن فى شعر هذين الشاعرين حول هذه الثنائية. أخيراً درس الباحثان شعر هذين الشاعرين من منظور الزهد فى بحث نشر بجامعة كرمانشاه تحت عنوان «مقارنة بين أبى العتاهية وناصرخسرو فى شعر الزهد». لم يتطرق الباحثان فى بحثهما إلى موضوع الحياة والموت فى شعر هذين الشاعرين، بل درسا شعرهما من جانب النزعة الزهدية وبواعثها وما ساق الشاعرينِ مساق التعبير عن الشعر الزهدي. يحاول هذا البحث تسليط الأضواء على موقفهما من هذه الظاهرة حتى يصل إلى أفضل نتيجة من الصراع المرير بين الحياة والموت عندهما.

١-٢- منهج البحث

اعتمدنا في إعداد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي وذلک من خلال الإشارة إلى البواعث البيئية والدوافع الفكرية والدينية وما تركته من بصمات واضحة في مقطوعاتهما الشعرية. يمهّد هذا البحث أرضية مناسبة للتعرّف إلى ما في بيئتهما من الظواهر المختلفة كالخلقية والاجتماعية والسياسية ومدى تأثيرها فى مواقف الشاعرين الزهدية وظهور إنتاجهما الشعرى.

بما أنّ أباالعتاهية وناصرخسرو يُعتبران فى الأدب العربى والفارسى من روّاد فكرة الزهد فحاولنا فى هذا البحث أن نتطرق إلى دراسة ثنائية الحياة والموت فى شعرهما مع أنّنا نعلم أنّ موضوع الحياة والموت من أهمّ المحاور الزهدية التى يتطرّق إليها الشعراء الزّهّاد. لقد أطال أبوالعتاهية وناصرخسرو الكلام عن الحياة والموت خاصة عند أبى العتاهية فيتضح لنا من خلال دراسة الحياة والموت فى شعرهما أنّ مفهوم الموت وما يتعلق به يختلف كلَّ الاختلاف لديهما. ففى حين نراها عند أبى العتاهية سطحية لا تأتي بفكرة أو فلسفة جديدة نجدها عند ناصرخسرو مغلّفة بمبادىء فلسفية.

١-٣- أهداف البحث:

يتناول الأدب المقارن دراسة النصوص المختلفة والآراء المتضاربة عبر الثقافات والحضارات المختلفة ويهتمّ بأنماط الترابط وأساليبه بين الآداب طيلة الزمان والمكان. انطلاقاً من هذا الموقف، يمهّد هذا البحث الأرضية المناسبة للتعرف إلى هذين الشاعرين الزاهدين وما أثّر في تكوين نزعتهما الدينية حول الحياة والموت وبواعثها. يحاول هذا البحث توطيد الصلات أكثر من قبلُ بين الأدبين العربيّ والفارسي.

يستهدف البحث دراسة ظاهرة الحياة والموت من خلال أشعار أبى العتاهية وناصرخسرو الزهدية وكيفية تطرّقهما إلى هذا الموضوع لنفهم هل كان هذا الموضوع مجرد فكرة عابرة خطرت بذهنهما أم كانت تدعمها الأسس الفكرية والفلسفية أو الدينية وهل كانت فكرة الموت على صلة وثيقة بالحياة الدنيا أم تعارضها وتقابلها عند الشاعرينِ ومدى تأثير هذه الفكرة فى اتجاههما نحو إنشاد الشعر الزهدى.

٢- نظرة إلى حياة أبى العتاهية وناصرخسرو

يعتبر إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان الملقب بـ «أبى العتاهية» من أبرز وأهمّ الشعراء العراقيين ولد وترعرع فى حضن الأدب فى العراق. إنّ العراق منذ قديم العصور كان بمثابة بؤرة هامّة نشأ فيها ونما كثير من الشعراء والأدباء والتيارات الأدبية والمذاهب الفكرية والعقيدية. ولد الشاعر سنة (١٣٠هـ) وتُوفّى في (٢١١ هـ)، وكان مشتاقاً إلى الشعر والأدب منذ نعومة أظفاره (الأصفهاني، ١٩٨٦م: ٣).

إذا أردنا الوقوف على حياة الشاعر الأدبية والفكرية فعلينا أن نمعن النظر فى شطريها المختلفينِ فتنقسم حياته الأدبية والفكرية قسمينِ: قسماً مضى فى الحياة العابثة واللاهية فانكب الشاعر فيه على الملذات الجسيدية والافتتان

بملهيات الدنيا، فلم يكترث بما جاء الدين الحنيف من التعاليم السمحة وهو في عنفوان الشباب، وشطراً آخر انصرف فيه عن تلک الحياة الماجنة وخصّص أدبه بالتزهد والتنسک وعهد على نفسه أن يمضی بقية الحياة فی الإنابة إلى الله تعالى والاستغفار مما اقترف فی الحياة من الذنوب والآثام وبذلک بدأت صفحة مشرقة جديدة فی حياته الأدبية والفكرية والعقيدية. فظلّ يذكّر بالموت والفناء للاعتبار وإسداء النصح و«استطاع من جرّاء ذلک أن يشقّ الطريق للأخلاقيين الفرس ک «ناصرخسرو»» (آربری، ١٣٧١هـ : ۴۶).

يعتبر الحكيم معين الدين ناصر بن خسرو القبادیانیّ الملقّب ب «الحجّة» الذی ولد بقرية «قباديان» من أعمال «بلخ» سنة ٣٩۴ هـ من الوجوه المتألقة فی الأدب الفارسی (مستوفی، ١٣٣۴هـ : ١١١). نشأ ناصرخسرو فی أسرة غنية من أسر مالکی الأراضی الفرس وكانت أسرته تمتلک الأراضی والمزارع الكثيرة، كما يشتغل بعض أفرادها بالوظائف الحكومية والمناصب الديوانية (دفتری، ١٣٧۵: ٢۵٠-٢۴٩). اتصل ناصرخسرو فی بداية الحياة ببلاط الحكام والوزراء وجرّب طيلة حياته دولتينِ كبيرتينِ: الغزنوية والسلجوقية، فاتصل بهما بغية العثور على ذيوع الصيت والتمتع بالصلات والجوائز. تتبين لنا حياة الشاعر بجميع جوانبها من خلال إجالة النظر فی شطريها المختلفينِ: شطر قُضی فی البذخ والترف والأخذ بالمغريات والملهيات الجسدية فانكب الشاعر حريصاً على نعيم الدنيا الزائل حتى ملّ منها، وشطر آخر أقبل فيه على الزهد والنسک وترک تلک الحياة العابثة اللاهية وخصّص بقية العمر بالطاعة والإنابة والاستغفار رجاء الرحمة والغفران. هذه الصحوة الروحية جعلته يبحث عن ضالّته فی الديانة الإسماعيلية (هرمان، ١٣۵۶هـ : ١۴۵).

٢-١- فكرة الزهد عند أبي العتاهية وناصرخسرو

يُستنتج من خلال دراسة ظاهرة الزهد فی شعر أبی العتاهية أنّ زهده كان بمثابة ردّ فعل عنيف من قبل الطبقات والشرائح المتدينة ضدّ العبث والمجون والخلاعة، وكان زهده وتقشّفه يصوّر في أكمل صوره ماضيه الملیء بالفسق واللهو. امتلأ شعره الزهدی بردّ فعل شديد تجاه الطبقات الغنية والمثرية من الذين يبنون القصور الفخمة والمشيدة، فالشاعر يدعو أبناء جنسه إلى ترک الملذات ومغريات الدنيا ومفاتنها ويذكرهم بالموت والرحيل الأعظم قائلاً:

يا مَن بَنَی القصرَ فی الدُّنيا وَشَيَّدَه — أسَّستَ قَصرَک حيثُ السّيلُ والغرقُ
لاتَغـــفلَنَّ فَــــإنَّ الدّارَ فـــانيةٌ — وَشربُها غُصـصٌ أو صَفـــوُها رنقُ
والموتُ حــــوضٌ كريةٌ أنتَ واردُه — فَانظُر لِنفسِکَ قبـــلَ الموتِ يا مَئِقُ

(أبوالعتاهية، ١٩۶۵م: ٢۴٨)

فالعاصفة التی دوّت فی كيان الشاعر وساقته مساق اختيار الزهد محوراً أساسياً لفنّه ولحياته،هي التي صورّت في أحسن صور تلک المشاعر الحسّاسة عند أبي العتاهية تجاه قضية حتمية الموت. وهذا الموضوع من المسائل الهامّة التي شغلت باله طيلة الحياة، فنراه دائماً يشعر بفداحة هذا الموقف قائلاً:

عِلمي بأنّي أذوقُ الموتَ نغَّصَ لي طيبَ الحياةِ فما تَصفو الحياةُ لِيا
إنَّ الرَّحيلَ عن الدُّنيا لَيُزعِجُني إن لم يكُن رائحاً بي كان مُغتديا

(المصدر نفسه: ٤٣٣-٤٣٢)

يذكّر بالموت على مدى الحياة ويصف أهواله ويعلن بحتمية الموت وقضائه على كافّة الورى. فالناس جميعاً يسلكون مسلك الهلاك والفناء ويشرفون على شفا حفرة من الزوال وسيصبحون عن قريب أجساداً هامدة:

لِدوُا لِلموتِ وابنُوا لِلخرابِ فكلُّكم يَصيرُ إلى ذَهابِ
لِمَن نبني ونحنُ إلى تُرابٍ نَصيرُ كما خُلقنا من ترابِ
أَلا يا موتُ لم أَرَ منكَ بُدّاً أَبَيتَ فلا تَحيفُ ولا تُحابي

(المصدر نفسه: ٣٣)

كذلك نعلم أنّ ناصرخسرو يعتبر في الأدب الفارسي من الشعراء الذين أمضوا حقبة وسيعة من حياتهم في اللهو والمجون، ثمّ ترك تلك في الأربعين من عمره الحياة الماجنة العابثة وانكبّ على الحياة المليئة بالحكمة والدين والتقوى وندم على تلك الحياة المثقلة بالذنوب والمعاصي. إنّ من أمعن النظر فى شعر ناصرخسرو يجد أنّه لا يوجد أثر من المظاهر الزهدية التى تجلت عند أبى العتاهية من لبس الصوف واعتزال الناس والميل إلى الوحدة، بل كان الشاعر على صلة وثيقة بالناس – لا نقصد جميع الناس، بل الذين لم يكونوا من الجَهَلَة والغَفَلَة والذين اتهموه بالإلحاد والزندقة- خاصة عندما التجأ إلى «يمكان»، وأراد أن يخلص الناس من تلك الحياة المخجلة والمجتمع المخزى الذى عاشوه. فمن ثم نجد فى شعره أمرّ وألذع الانتقادات الدينية والسياسية والأخلاقية تجاه العادات التى سادت المجتمع آنذاك.

فى الحقيقة كان زهده بمثابة ردّة فعل عنيف أمام ما جرى فى عصره من النفاق والتزوير والاعتداء على الحقوق والمحاكاة العمياء خاصة فى القضايا الدينية ويعدّ تعرفه إلى الديانة الإسماعيلية نقطة التحول عنده، إذ لانعرفه بمثابة إنسان أمضى فترة من حياته فى البذخ والترف والمجون فقط، ثم أناب وانصرف عنها نتيجة البواعث المختلفة، أو نعتبره شاعراً زاهداً أنشد فى الزهد وما يمتّ إليه بصلة فقط، بل نعتبره حكيماً وفيلسوفاً وأخلاقياً ملأ آثارَه بالنظريات والآراء الحكمية والفلسفية التى لم يكن للمجتمع سابق عهد بها، وهذا يتجلى بصورة واضحة فى آثاره المنظومة والمنثورة.

٢-٢- الخوف من الموت عند أبى العتاهية

يستحوذ الخوف الشديد والرهبة من الموت على نفسية أبىالعتاهية، وهذا ما جعل الشاعر يعبّر عن هواجسه الدفينة ومكنوناته النفسية. فعندما يتحدث عن الموت والفناء فإذا هو يتجه نحو الإفصاح عن رهبة الموت والاعتبار والتحذير منه والاستعداد التامّ للرحيل الأعظم من خلال التزوّد بصالح الأعمال ونبذ الدنيا ومغرياتها بكبح النفس الطاغية وتمرينها على الرياضة والانصراف عنها و الاصطبار الجميل والعكوف على النزر اليسير من الحياة والقناعة.

يصوّر الشاعر في ثنايا قصائده شبح الموت الذي يلاحقه أينما يتّجه، فلا غرو أن تكتظّ مقطوعاته الزهدية بتصوير الموت ومخاوفه، فالشاعر يخافه ويغتمّ إثر ذكره ويقول:

أَرَى الموتَ لي حيثُ اعتمدتُ فأَصبحتُ مَهموماً هناكَ حزيناً
سيُلحِقُني حادي المنايا بِمَن مَضى أَخــذتُ شِمالاً أو أَخذتُ يميناً

(المصدر نفسه: ٣٨٣)

لقد أكّد أبوالعتاهية فى شعره على ذكر الموت تأكيداً شديداً مما جعل جماعة من خصومه يتّهمونه بالزندقة، وقالوا: إن كان مؤمناً فلماذا يخاف الموت؟. فسلم الخاسر، رفيق بشّار بن برد، هو الذى اتّهمه بأنّ الزهد عنده رياء ونفاق (الأصفهانى، ١٩٨٦م، مج٤: ٧٥) وابراهيم بن المهدى المغنّى هو الذى اتهمه بالإلحاد والزندقة والإكثار من الموت دون البعث والجنة والنار (نفسه: ١٠١). فإنّ أهمّ ما يستدلون به على زندقة أبى العتاهية هو أنّه لم يذكر فى شعره البعث والجنة والنار. يرجع بعض النقّاد إكثار أبى العتاهية من ذكر الموت إلى أنّه يرى فيه السبيل الوحيد للمساواة بين الناس تحت أطباق الثرى (الكفراوى، ١٩٧٢م: ١١٥). ممّا لا ريب فيه أنّ الشاعر أراد من خلال التذكير بالموت وتصوير أهواله ومخاوفه تسلية الناس وتعزيتهم وتمهيد أرضية مناسبة لتقديم النصح والموعظة قائلاً في نفسه: لماذا لايعتبر الناس من الموت وجرائره رغم أنّهم يعيشون في الغي واللامبالاة طالباً بتحذيرهم من أهوال الموت وغوائله.

يتضح لنا من خلال مقطوعاته الزهدية أنّ الخوف من الموت وأهواله جرى في إطار الزمن والناس وهما من أهمّ القوالب التي تدور فيهما صورة الحياة والموت. وربما يكون وعيه التامّ بالناس وأحوال الزمن من أهمّ الداوعي التي ساقت الشاعر مساق التعبير عن الموت، نراه يقول:

أُنظُر لِنفسِكَ فالمنِيّةُ حيثُ ما وجّهتَ واقفةٌ هناكَ حِذاكا
لِلــــموتِ داعٍ مُزعِــجٌ وَكَأَنَّه قد قامَ بينَ يَدَيكَ ثُمّ دَعاكا

(أبوالعتاهية، ١٩٦٥: ٢٦٣)

لقد استحوذ الخوف من الموت عليه، فأنساه كلَّ شيء سواه، فيقول:

وَأَصبَحَ لي في الموتِ شُغلٌ عن الصِّبا وفي الموتِ شُغلٌ شاغلٌ لِذَوي العقلِ
كَيفَ أَلهو وَكَيفَ أَسلو وأَنسى الـ موتَ والـموتُ رائحٌ بي وغادِ

(المصدرنفسه: ١١٤-٢٩٣)

كان الشاعر يئنّ تحت أقدام الموت الثقيلة التي عكّرت عليه كيانه وما يحرص عليه في الحياة، ويقول:

أَيا هادمَ اللَّذّاتِ ما منكَ مَهرَبٌ تُحاذِرُ نفسي منكَ ما سَيُصيبُها
كأنّي برهطي يَحمِلونَ جَنازتي إلى حُفرةٍ يُــحثى عَلَيَّ كثيبُها

(المصدر نفسه: ٤٨)

يعتبر الشاعر قضية الموت بين الناس مصدراً ثرّاً للإفصاح عن التعزية والهدوء، فيقول:

اَلموتُ بينَ الخَلقِ مَشتركُ لا سُوقَةٌ يَبقى وَلا مَلِكُ

(المصدرنفسه: ٢٦٧)

إذا أمعنا النظر في تضاعيف المقطوعات الزهدية عند أبى العتاهية نجد أنّ فكرة الحياة والموت والبقاء والفناء التي افترشت مساحة كبيرة من أدبه تمثّلت كأداة للتخلص من الضغائن والأحقاد التي اعتصرت نفسه من قبل الناس والمجتمع الإنساني، فهذا هو الشاعر الذي يصور الموت بمثابة الرحى التي تطحن كل الناس ولا تذر على الأرض منهم ديّاراً:

الناسُ في غَفَلاتِهم وَرَحى المنيّةِ تَطحَنُ
ما دونَ دائرةِ الرَّدى حِصنٌ لِمَن يَتَحَصّنُ

(المصدرنفسه: ٣٨١)

يتضح أنّه يستعدى الموت على الناس ويجعل لهم أقسى أنواعه إبادةً، وهو الطحن. يتكوّن هذا الموقف فى ذهنه كلّما أثاره بعض أفراد الطبقة العليا (الكفراوى، ١٩٧٢: ٦٤). ومن أمثلة ذلك قوله فى القاسم بن الرشيد حين تجاهله وهو مارٌّ به:

يَتيهُ ابنُ آدَمَ مِن جَهلِه كَأنَّ رَحَى الموتِ لاتَطحَنُه

(أبوالعتاهية، ١٩٦٥: ٤١٤)

٣-٢- بواعث الخوف من الموت عند أبى العتاهية

يستنتج من خلال أشعار أبى العتاهية الزهدية أنّ خوفه من الموت ينبع من عوامل عدّة، منها ما يعود إلى الظروف السياسية التي عاشها وما قامت به الدول الغاشمة طيلة حياتها من القتل وإهراق دماء الأبرياء وكمّ الأفواه وما واجهه الشاعر من انهيار دولة بعد أخرى ومايعقبها من الويلات والمصائب، ومنها ما ينجم عن إقبال رجال الدولة والأمراء على مفاتن الدنيا ومباهجها. وهذا ممّا حمله أن يتخذ الموت بمثابة قاسم مشترك بين السوقة والملوك لا فرق بينهم، ومنها ما يعود إلى ما تحمّله الشاعر من لوم اللائمين وتأنيبهم من جرّاء عقدة النقص وضعة النسب بين شرائح الناس المختلفة. فهذا كلّه هو الذى جعل الشاعر يتخذ الموت وأهواله بمثابة أداة طيعة للحصول على التعزية والتسلية ومن أهمّ ملامح هذا الأمر ما نشاهده فى شعره من وصف الأجداث والمقابر، فيخاطبها مصوّراً ما فيها من الوحشة والاضطراب ويناجي بأنماط الحوار المختلفة التي تدلّ على إسداء النصح والحثّ على الاستعداد المفاجئ للموت والرحيل عن دار ممرّ. فكان الشاعر على ثقة بأنّ الدنيا ليست على حالة واحدة وديدنها عدم الثبات والاستقرار وإن هى إلاّ دار قلعة لاتليق بالاطمئنان.

أقام محمد عبدالعزيز الكفراوى بين قضية الموت والضعف الجسمانى أو الأدبى والاجتماعى عند أبى العتاهية صلات وثيقة. يرى أنّه كان من الجانب الاجتماعى فى نهاية الضعف والفتور، كما أنّ اضطراب أعصابه يدلّ على أنّه كان ضعيفاً من الجهة البدنية، فضلاً عن ذلک رؤيته لما أُريق فى الكوفة من دماء زمن طفولته الأولى بسبب مقاومتها للعباسيين. كل ذلک أدّى إلى ظهور أرضيّة مناسبة لنموّ الشعور بالخوف الشديد من الموت، فالشاعر قبل أن يهدّد الناس بالموت ويتمنّاه لهم قد ظلّ يرتعش ساعات وأياماً طوالاً أمام شبح غوله المخيف (الكفراوى، ١٩٧٢: ٦٦، أُنظر: عانوني، ١٩٦٢م: ٩٩). يعقبه غول الموت وهو فى صراع مرير معه:

لِلموتِ غُولٌ فَكُن ما عِشتَ مُلتَمِساً مِن غُولِه حيلةً إن كُنتَ مُحتالا

(أبوالعتاهية، ١٩٦٥: ٣٠٢)

يتضح لنا من خلال ما سبق أنّ الشاعر أصيب بالخوف الشديد والبالغ من الموت وماينتظره من الثواب أو العقاب في تلک الحياة الخالدة، فالموت بمثابة رحى تطحن كل أبناء البشر لا تبقى منهم ولا تذر. فاصطبغ مخزونه الفكرى والثقافي بما شاهده طيلة الحياة من المصائب والمشاكل العويصة التي لم يستطع الشاعر أن يحلّها.

لقد ميّز «فرويد» بين نوعينِ من القلق: قلق موضوعى هو استجابة واقعية للخطر المدرک والناجم عن البيئة، ويوازى هذا المفهوم للقلق مفهوم الخوف، أمّا النوع الثانى فهو قلق عصابى ناجم عن صراع لا شعورى داخل الفرد، لا يكون الفرد عادة على وعى بأسبابه (عدس وآخرون، ٢٠٠٢م: ٢٧٠)، ويبدو أنّ قلق أبى العتاهية من النوع الثانى أي القلق العصابى.

فتبين لنا من خلال ما تقدّم من الأبيات أنّ أباالعتاهية يخاف الموت خوفاً شديداً وتقوم نظرته على الرهبة منه وشموله وغدره، وربما يكون هذا الخوف الشديد من الموت عنده ناتجاً عن جبنه وضعف أعصابه. نجد أنّ أباالعتاهية لايدلف إلى منيّته بنفس مطمئنة ظامئة إلى لقاء الله تعالى، ولكنه يبدو فى صورة المحنق الخائف من الموت وأهواله (خلف الله، ١٩٤٧م: ٩٦، أُنظر: عبدالغني الشيخ، ١٩٨٣م: ٩٨).

حاول ناصرخسرو أن يصوّر فى شعره الحياة – خاصة الحياة النبيلة الشريفة– أكثر من الموت، فظهرت مواقفه تجاه الحياة على شكل طبقات ترسّخت فى ذاكرته، لأنّ الحياة تبشّر فى طياتها بالبقاء والنشاط والحيوية خاصة حينما امتزجت بالمواقف والنظرات الحكمية والعقلانية والقيم النبيلة.

لقد رافقت شعرَه قضية الإيمان العميق بالموت مع فكرة عدم الاغترار بالدنيا والإقبال عليها، خاصة أنّ التعاليم الإسلامية تحذّر من الاغترار والافتنان بالحياة الدنيا، فضلاً عن الآيات الكثيرة الواردة فى القرآن الكريم التى تحرّض الإنسان على عدم الافتنان بنعيم الدنيا الزائل وملهياتها. قد ورد هذا الموضوع فى الروايات الإسلامية التى تشير إلى

الموضوع نفسه، فمنها قول النبى (ص) حيث يقول: «كن فى الدّنيا كأنّك غريبٌ أو عابر سبيل وعدّ نفسك فى أهل القبور» (ترمذى، د.ت: ٧٥۶).

إذا أمعنا النظر فيما يمتّ بصلة إلى قضية الموت في ثنايا شعر ناصرخسرو نجد أنه لا يشغل باله للكشف عن الموت وحلّ لغزه وعندما يتحدث عن الموت يتجاوز الموضوع عابراً. يعتقد الشاعر بأنّ الذين اهتمّوا بالدنيا ونعيمها الزائل يصعب عليهم هجر الدنيا ونبذ ملذّاتها، فمن ثمّ يعدّ الموت بمثابة ما يخلص الإنسان من سجن الجسم، ولايليق بالإنسان العاقل أن يفزع ويغتمّ. أراد الشاعر بهذا ألاّ يغترّ الإنسان بالدنيا ومباهجها الزائلة فحاول أن يجعلها أكبر همّه وقصارى أمله ويغضّ البصر عن تلك الحياة الكريمة النبيلة التى تليق بالإنسان والتى تمتلىء بالأسس السامية والثوابت الدينية.

ذهب الشاعر إلى أنّ السبب الرئيسيّ في خوف الناس من الموت هو الخوف من نهاية الحياة الدنيا وانقطاع الأيدى من الملذّات والملهيات، مع أنهم نسوا بقاء الإنسان في تلك الحياة الخالدة:

چون گشت يقين كه جان نميرد　　آسان برهى ز مرگ آسان

(قباديانى، ١٣٥٧هـ : ٣٨٥)

أى: إن تثق ببقاء الروح يسهل عليک الموت.

وجدنا من خلال ذلک أنّ نظرة هذين الشاعرينِ إلى الموت تختلف كلَّ الاختلاف، ففي حين نراها عند أبي العتاهية سطحية لا تدعمها المبادىء والأسس الفلسفية أو الفكرية نجدها عند ناصرخسرو مغلّفة بإطار فلسفي.

٣-٢-١- علاقة المشيب بالموت عند أبى العتاهية وناصرخسرو

جدير بالذكر أنّ الشاعر تأثّر فى قضية الموت بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، فظهر هذا التأثر فى استلهام قول الرسول (ص) حيث يقول: «أكثروا من ذكر هادم اللذات»، يعنى الموت (ترمذى، د.ت، ج۴: ۵۶۷). من هنا نرى أنّ أباالعتاهية يتفق والنظرة الإسلامية فى إلحاحه على ذكر الموت لتذكير الناس بأنّ الحياة قصيرة وفانية، فعلى الإنسان أن يتخذها جسراً للعبور إلى الآخرة، ولكن دون أن ينسى نصيبه من الدنيا، ففكرة الموت وتصوير الشيخوخة في تضاعيف مقطوعاته الزهدية ساقته مساق التخلّي والانصراف عن متاع الدنيا الزائل. لقد بكى الشاعر على فقدان الشباب وعهد النضارة والطراوة متحسراً على أيام الشباب وتلک الحياة المضيئة والمشرقة. فالصراع بين الشباب والمشيب في شعره يدلّ على ثنائية الحياة والموت أو البقاء والفناء. الشباب هو مظهر الفرح والقدرة والبقاء والشيخوخة صورة من صور الضعف والفتور والتخلّى عن العبث واللهو وهى تؤذن بقرب الموت. لا ريب أنّ هذه الكراهية من المشيب تصور فى طياته فكرة عن الموت وقرب النهاية، فالشاعر يعاني من استحالة عود الأيام الماضية التي اكتظت بالتصابى والمرح والنشاط، فيعتبر الشاعر المشيب إحدى الميتتينِ فيقول:

الشَّيبُ إِحدَى الميتَتَينِ تَقَدَّمَت إِحداهُما وتَأَخَّرَت إِحداهُما
فَكَأَنَّ مَن نَزَلَت بِه أُولاهُما يَوماً فَقَد نَزَلَت بِه أُخراهُما

(أبوالعتاهية، ١٩٦٥: ٣٥٣)

إنّ حديث الشاعر المستفيض عن الحياة والموت والمصير يذكرنا بما كان يجرى على ألسنة زهّاد العصر الأموى فى خطابتهم الوعظية من أمثال مسروق بن الأجدع وأويس القرنى والربيع بن خُثَيم (خليف، ١٩٨١م: ١٨٨،١٩٤، أُنظر: العشماوى،١٩٧٨م: ١٠٣)، مع فرق واحد هو أنّ أباالعتاهية قد اتسمت أشعاره بطابع سوداوي وتشاؤمي ينمّ عن الرهبة والخوف الشديد، فيعدّ خوفه من الموت نمطاً من أنماط الموعظة لتخويف الناس ابتغاء عدم تشبثهم بمغريات الدنيا الفاتنة والغفلة عن الحياة الأبدية الخالدة، وربما يكون خوفه الشديد من الموت يصدر عن إقباله على الدنيا الذى ترسّخ في كيانه منذ الشباب لما تمتّع في تلك الفترة من الملاهى والأموال الهائلة، فيقول:

كُلُّنا يُكثِرُ المِذَمَّةَ لِلدُّنيا وَكُلٌّ بِحُبِّها مَفتونُ
أُجَنُّ بِزَهرَةِ الدُّنيا جُنوناً وَأُفني العمرَ فيها بِالتَّمنّي
وَلَو أَنّي صَدَقتُ الزُّهدَ فيها قَلَبتُ لِأَهلِها ظهرَ المِجَنِّ

(أبوالعتاهية، ١٩٦٥: ٣٧٦)

يتضح لنا من خلال أشعار أبى العتاهية الزهدية حول ثنائية الحياة والموت أنّه أكثر من ترداد هذا الموضوع في شعره حتّى آل به الأمر إلى التشاؤم واللاجدوية في الحياة الدنيا، فعلى الإنسان أن ينتظر شبح الموت في كل آنٍ ولحظة. لقد تجاوز الشاعر في هذا المضمار الحالة المألوفة والطبيعية ورمى بنفسه في أحضان الخوف الشديد والضغط النفسى والروحى. فعلى مذهب الشاعر كل بناء سيؤول إلى الهدم والخراب وكل ولد سيكون جسداً بلا حركة. نجد الشاعر دائماً يدعو أبناء البشر إلى التفكير والوعظ والنصح ويبذل قصارى جهوده المستميتة ليخلص نفسه من الموت وأحابيله.

أمّا ثنائية الشباب والمشيب عند ناصرخسرو فتحضر لنا صوراً حديثة تتمتّع بالحيوية وتظهر لوحات فنيّة تعبّر عمّا حلّ بالشاعر في تلك الفترة النهائية من الحياة. لقد أحس الشاعر بثقل الكاهل وتعاقب الوقائع والحوادث مما جعله متحدثاً عن رجوع أيام الشباب المليء باللهو والعبث والنضارة.يتجلى الشاعر من خلال هذه المقطوعات كواعٍ منيب يتحدث عن عودة تلك الأيام الحلوة في قالب يدلّ على الندامة والحسرة.

لقد وردت هذه الثنائية في شعر ناصرخسرو ستّ عشرة مرّة وتميّزت لديه بخصائص عدّة، منها أنّ الشاعر عندما يعبّر عن أيام الشباب وما كان فيها من المرح والنشاط يسوقه هذا مساق التحدّث عمّا انتابه عهدَ الشيخوخة من الضعف والفتور والخذلان، فيقبل على الموعظة وإسداء النصح تنبيهاً لما في الدهر من الغدر والخيانة وعدم الاستقرار. ثمّ يصوّر كيفية كماله وهدايته في أيام المشيب بواسطة الدين الحنيف ويُشيد بالعقل والدين ويعتبرهما

ملاذينِ آمنينِ أمام ما جرت في الدهر من الوقائع المؤلمة وأدرج في ثنايا هذه الثنائية تجاربه الروحية والنفسية التي اكتسبها في هذين العهدين (عهد الشباب وعهد المشيب) مما جعله رجلاً محنّكاً ذاق حلو الحياة ومرّها.

أى:لقد جعلني جيش الشيخوخة وقافلة الذلّ مغولياً. إذا حلّ جيش بمكان يُسمع فيه الجلب والأصوات، أمّا جيش المشيب فأفحمني. لا جُعلت الدنيا مسرورة أبداً، فإنّها بدّلت سروري حزناً والعزّة ذلاً.

لشگر پيرى فگند و قافله ذُلّ	ناگه بر ساعدين و گردن من غل
غلغل باشد به هر كجا سپه آيد	وين سپه از من ببُرد يكسر غلغل
شاد مبادا جهان هرگز كه او كرد	شادى و عزّ مرا بدل به غم وذل

(قبادياني، ١٣٥٧ :٣٤١)

٣-٢-٢- صلة الحياة والموت بالنصح والاعتبار عند أبي العتاهية وناصرخسرو

لا ريب أنّ هذين الشاعرين عبّرا تعبيراً صادقاً عن تجاربهما الروحية طوال الشطرين المختلفينِ من الحياة عهد الشباب والشيخوخة، فحاولا أن يُضفيا على شعرهما نوعاً من الحكمة والتأمل واعتبرا المشيب مفهوماً دينياً، إذ جعلا الحديث عنه كأداة لدعوة الآخرين إلى الإنابة ونبذ الدنيا والإقبال على كلّ عمل من شأنه يؤدّى إلى الفوز بالحسنات والصالحات والتقرب إلى الله تعالى، فمن ثمّ يعتبران الشيخوخة باعثاً قوياً لتقديم النصح والعظة لإعادة الحساب مع النفس وتقويم السلوك والعمل. انطلاقاً من هذا الموقف، ينصحان الإنسان بأخذ العبر والمواعظ وردّ النفس عن غيّها وتصحيح مسار الحياة وحاولا أن يفصلا بين الصراط المستقيم الذي لا وعوثة فيه والطريق الذي يمتلئ بالعقبات الكؤودة، فتعتبر الحكمة وتقديم النصح والتفكير في العاقبة من أهم الذرائع التي يستخدمانها لنيل المراد والتعبير عن مكنوناتهما. ومن أمثلة ذلك قول أبي العتاهية:

فَما لَكَ لَيسَ يُعمِلُ فيكَ وعظٌ	وَلا زَجرٌ كَأَنَّكَ مِن جَمادِ
سَتَندَمُ إن رَحَلتَ بِغَير زادٍ	وَتَشقى إذ يُناديكَ المِنادي
فَلا تَأمَن لِذي الدُّنيا صَلاحاً	فَإِنَّ صَلاحَها عَينُ الفَسادِ
وَلاتَفرَح بِمالٍ تَقتَنيهِ	فَإِنَّكَ فيهِ مَعكوسُ المرادِ
وَتُب مِمّا جَنَيتَ وَأَنتَ حَيٌّ	وَكُن مُنتَبِهاً قبلَ الرُّقادِ
أَ تَرضَى أَن تكونَ رَفيقَ قومٍ	لَهُم زادٌ وَأَنتَ بِغَير زادِ

(أبوالعتاهية، ١٩٦٥: ١١٥)

كذلك نجد أنّ موقف ناصرخسرو من الحياة والموت يتّسم بالإعراض عن الدنيا والتضحية بنعيمها وإيثار الآخرة عليها، فإنه أدرك تماماً حتمية الموت والزوال وما بعده من ثواب ونعيم للمؤمنين. اتخذ ازدراء الدّنيا وهجرها والتحريض على طلب الحكمة والموعظة الحسنة وسيلةً للتذكير بالنّاس وتنبيههم من غفلتهم وغيّهم لئلاّ يرموا بأنفسهم فى أحضان العبث واللهو. تمحور شعره فى هذا المجال حول هذه المحاور: خداع الدنيا وتقلّب أحوالها-

تحقير الدنيا والتقليل من شأنها- اقتران الحكمة والنزعة العقلية والحكمية فى الدنيا- الموت وما يتبعه من حساب- التمتع بشفاعة الأولياء والأنبياء فى الحياة الأخرى- حتمية الموت وقوة سطوته.

لقد اتسم شعره الزهدي في هذا المجال بطابع ذمّ الدنيا والتقليل من شأنها للتعبير عن الرحيل عنها وعدم الافتنان بها، فمن ثمّ اتخذ الدنيا وما فيها من النعيم الزائل بمثابة موقف للعمل الدؤوب والتزوّد من الصالحات بغية التخلص من غدرها. انطلاقاً من هذا الموقف، نجد صراعاً مريراً ومحتدماً بين الحياة والموت في خطابه الشعرى في إطار تتجلى فيه مناجاة النفس والتحدث معها. يتضح من خلال أشعاره أنّ حياة الإنسان تنتهى بالموت والفناء وهذا الأمر ينمّ عن استسلام الشاعر الزاهد لسنن الحياة التى تصوّر في هذا المجال لوحات فنية جميلة تتسم بالحيوية والنشاط. من أهمّ ملامح هذه الثنائية فى شعره، إسداء النصح والموعظة للناس حيث أنّها تعتبر من أهمّ الذرائع التربوية وأنجعها فى إعداد الناشئين خلقياً ونفسياً، لأنها تسوقهم مساق التحلّى بالثوابت الدينية السامية والمكارم الأخلاقية.

كان ناصرخسرو على استعداد نفسىّ لأخذ العبر من الآخرين خاصّة المصادر الإسلامية حرصاً منه على تفادى الذنوب، فقام فى شعره بإسداء المواعظ والعبر لتكوين الأثر الإيجابىّ فى نفس المتلقى، «فصار معظم شعره فى هذا المجال مجموعة من الأدلّة والحجج العقلية معتمداً على العزوف عن الغزل واللهو والعبث» (زرين كوب، ۱۳۷۵: ۲۷۷) . ارتبطت فكرة الحياة والموت عنده بالرؤية الدينية وبما خلفته الأحداث الاجتماعية والسياسية فى نفسه من الخيبة والحرمان إثر انغماس الناس فى ملذّات الدّنيا ومغرياتها. فالتأمّل فى قضية الحياة والموت عنده ناجم عن صميم إيمانه وعقيدته الخالصة خاصة أنّه يُعدّ داعياً دينياً، فقد ظهر هذا الأمر فى شعره بصورة جليّة حيث نجد أنّ الشاعر يرفض بشدة حبّه للدنيا ومباهجها الفانية ويحاول التخفيف من شدّة هذا الحرص والاستزادة ويدعو إلى تحقيرها وعدم الافتنان بها تحذيراً من مغباتها وتذكيراً بفنائها وعدم استقرارها، فأكثر من ذكر تلك الحياة التى تليق بالإنسان المؤمن وأطال التأمّل فيها والحديث عن خداع الدنيا والبعث والحياة الأخرى.

يستنتج من شعره أنّ ذمّ الدنيا واحتقارها والتذكير بالموت والحياة تعتبر من أهمّ الروافد الفكرية والثقافية التى تقوّى نزعته الزهدية، فحاولت مقطوعاته الزهدية تجسيد هذه الفكرة ودعمها بأنماط مختلفة، لأنّ البعض ذهبوا إلى أنّ هذه الطريقة الفكرية تجلّت عن فكرة ومواقف عابرة لا تدوم، وأما الآخرون فذهبوا إلى أنّ هذه الفكرة تدعمها الأسس الفكرية والمناهج الفلسفية العميقة —كما نجد ذلك عند الشاعر. هذه الفكرة تشتمل في طياتها على صور وملامح تحمل طابع التحذير من فوات الأوان واغتنام الفرص السانحة، فمن أجل ذلك تدعو أبناء البشر إلى المجاهدات النفسية والإيمان بحتمية الموت والفناء وضرورة الانصراف عن الدنيا ومغرياتها والتزوّد بالصالحات. انطلاقاً من هذا الموقف، يعتبر الشاعر الدنيا جسراً يُوصل الإنسان إلى تلك الحياة الباقية الخالدة، فيقول:

سوى آن جهان نردبان اين جهانست　　به سر بر شدن بايد اين نردبان را

(قبادیانی، ۱۳۵۷: ۱۰)

أی: إنّ هذا العالم سلّمٌ تجاه ذلک العالم، فیجب أن یُصعد علی هذا السلّم.

اعتبر الشاعر هذه الحیاة الدنیا بمثابة تمهید للتهیؤ والاستعداد لتلک الحیاة الباقیة، فما علی الإنسان إلا التزود بالصالحات، لأنّ العالم الخالد بالنسبة إلی هذا العالم الفانی کالمرآة التی تبیّن لنا ما یجری فی ذلک العالم، فیجنی هناک البشرُ کلَّ ما یزرع فی هذا العالم. هو مزرعة الآخرة ولا یلیق بالشاعر الزاهد أن یصاحب الدنیا الفانیة:

آن جهان را این جهان چون آینه‌ست　　نیک بندیش اندر این نیکو مثال

(المصدر نفسه:۷۳)

صحبت دنیا مرا نشاید ازیراک　　صحبت او اصل ننگ و مایه عارست

(المصدرنفسه:۴۸)

أی: إنّ ذلک العالم بالنسبة إلی الحیاة الدنیا مرآة، فأعمِل الفکرة جیّداً فی هذا المثال. لا تلیق بی مصاحبة الدنیا، لأنّها أصل السبة والعار.

۳-۳- علاقة الموت بالثواب والعقاب عند أبي العتاهية وناصرخسرو

یعتبر إسداء النصح والإعراض عن الدنیا والتضحیة بنعیمها وإیثار الآخرة علیها من القواسم المشترکة بین هذین الشاعرین الزاهدین، فإنهما أدرکا حتمیة الموت والزوال وما بعده من ثواب ونعیم للمؤمنین أو عقاب وعذاب للمجرمین. فاتخذا الزجر والتخویف والإنذار وسیلة للتذکیر وتنبیه الناس من الغفلة والغیّ لئلاّ یرمون بأنفسهم في أحضان العبث واللهو.

انبعثت ثنائیة الحیاة والموت فی نفسیة ناصرخسرو وزعزعت کیانه لما یری الشاعر فیها من هول الطامّة الکبری وما ینتظر الإنسان من ثواب أو عقاب. لقد أکثر الشاعر من تَرداد هذا الموضوع لیکون باعثاً للقیام بکلّ ما یُقیم الإنسان مقام الجنة وینفّر عن کل فعل یسوق الإنسان مساق النار والسعیر. التذکیر بالقیامة وما یتبعها من العقاب أو الأجر هو الذی ساق الشاعر مساق التعبیر عن هذا الصراع المریر بین الحیاة والموت، فالشاعر یصور القیامة وأهوالها للمتلقی للتخویف والتذکیر معتمداً علی المفاهیم القرآنیة فیقول:

آن دان به یقین که هر چه کرده‌ستی　　امروز، به محشر آن فرو خوانی

زان روز بترس کاندرو پیدا　　آید، همه کارهای پنهانی

زان روز که جز خدای سبحـــان را — بر کس نرود ز خلـق، سلطانی
زان روز کــه هـــــول او بـــریزاند — نور از مه وز آفتـــاب رخشانی
وز چـــرخ ستـــــارگان فـــرو ریــزد — چــون برگ رزان به بـــاد آبانی
وز هــــول در آیـــــد از بیابانها — نخـــــچـیر رمنــــده بیابـــانی
عریان هـــمه خلق وز بس ســختی — کس را نبـــود خبـــر ز عریانی
چون پشـــم زده شود کُه و، مـردم — همچون ملـــخان ز بس پریشانی
آنـــگه ز میـــــان خلــــق برخیزد — خویـــــشیّ و برادری و خسرانی
پوشیـده نمـــــاند آن زمــــان کـاری — کان را تو همی کـــــنون بپوشانی
آن روز به عـــــذر گفت نتــــوانی — می خورد فلان و مـــن سپندانی
وانجـــا نرود تـــــرا چنین کـــاری — کامروز در این جهـــان همی رانی

(نفسه: ۵۹)

أی: تیقّن أنّ کلَّ ما فعلتَ الیومَ سوف تجده فی المحشر. فخِف یوماً تتجلّی فیه الأعمال المختفیة. ذلک الیوم الذی یحکّم الله تعالی بینَ الأنام. ذلک الیوم الذی یخسف فیه القمر وتکوّر الشمسُ وتنکدر النجوم فتسقط کالورق فی فصل الخریف. تخرج الطرائد من المفاوز من شدة ذلک الیوم. یُعرّی الوری جمیعاً لکنّ الخلائق لا تنتبه إلی عریّها لشدّة الأهوال في ذلک الیومَ. یوم تکون الجبال کالعهن المنفوش ویصیر الناس کالفراش المبثوث. یوم لاتنفع قرابة ولا أخوّة. کلّ ما فعلتَ فی هذا العالم یبلی ذلک الیومَ. فلِمَ تعتذر ذلک الیومَ، لأنّ الاعتذار لا یفیدک کما أفادک فی الحیاة الدنیا.

۳–۴– علاقة الموت بالاغتراب عند أبي العتاهية وناصرخسرو

المراد بالاغتراب هو «حالة نفسيّة اجتماعيّة تسيطر على الفرد فتجعله غريباً وبعيداً عن واقعه الاجتماعى» (إديث،۱۹۹۳م:۳۶۹، أُنظر: سلامي، ۲۰۰۰م: ۲۲). و هذا يمتّ بصلة وثيقة إلى المعنى الاجتماعىّ الذى يتّضح من خلاله أنّ هذا الانعزال والابتعاد لا يمكن أن ينشأ من خلال الأحاسيس النفسية الأخرى كالخوف والحنين والقلق.

إذا دققنا النظر في ثنايا شعر أبي العتاهية نجد أنواعاً مختلفة من الشعور بالاغتراب لديه، منها الاغتراب الزماني (كاغتراب الشاعر من أحداث الزمان واغترابه من الموت)، والاغتراب السياسى والاجتماعي (كاغترابه من الناس، ومن قيم المجتمع وعاداته وأعرافه السائدة) وأخيراً الاغتراب المكاني، إذ اتخذ الشاعر الزهد والعزلة من الأسباب الناجعة والطرق المؤثرة لقهر هذه الصور المغتربة في الحياة.

يتضح لنا من خلال ديوانه الشعري أنّه قد سئم من الحياة وملّ العيش فيها لكثرة ما فيها من آثام وشرور تجعل الشاعر يمقتها وأبناءَها وهذا ما جعله يرجّح الموت ازدراء بالدنيا أو كرهاً لها. فمن أجل ذلک يعتبر الاغتراب لديه من أصدق المحاور الشعرية التي ترسم حالته أصدق رسم وتكشف عن واقعه ومعاشه وهي أفضل وسيلة للتعبير عن أشجانه وآلامه التي واجهها طيلة الحياة وما أحاط به من الهواجس الدفينة. أدرج الشاعر في ثنايا القصائد التي تتعلق بالاغتراب، الشعور بالاغتراب من الناس وما كانوا عليه من الذمائم والقبائح. يُستنتج من اغترابه من الدهر وأبنائه أنّ هذا الشعور والإحساس ربما يصدر من مصادر عدّة، منها التجربة الشخصية التي عاناها الشاعر بين أبناء الدهر وما أصابه خلال ذلک من القنوط والحرمان وسوء التصرف به، شعوره بضعة النفس والنسب، التدهور في الظروف الاجتماعية في المجتمع خاصة الدينية والخلقية، استعداده الفطري للذمّ والتأنيب بدل المدح والثناء. ينمّ هذا الإحساس عن نفس يئوس فاشلة لم تثق بأحد من الناس وصارت ترصد أبناء البشر على أنّ أهمّ ما يميّزهم الخيانة والغدر قائلاً:

فَيـــا رَبِّ إِنَّ النّاسَ لا يُنصِفونَني ... وَكَيفَ وَلَو أَنصفتُهُم ظَلَمـــوني
وَإِن كانَ لي شيءٌ تَصَدّوا لِأَخذِه ... وَإِن جِئتُ أَبغِي شَيئَهم مَنَعوني
وَإِن نالَهُم رِفدي فَلا شُكرَ عندَهُم ... وَإِن أَنا لَم أَبذُل لَهُـــم شَتَموني
وَإِن وَجَدوا عِندي رَخـــاءً تَقَرَّبوا ... وَإِن نَزَلَـــت بي شِدّةٌ خَـــذَلوني
وَإِن طَرَقَتني نَكـــــبةٌ فَـكِهوا بِها ... وَإِن صَحبَتني نعـــمةٌ حَسَدوني
سَأَمنَـــعُ قلبـــي أن يَحِنَّ إليهـم ... وَأَحجُبُ عَنهـــم ناظري وجُفتوني

(أبوالعتاهية، ١٩٦٥: ٤٦٥)

إنّ الممعن فى شعر ناصرخسرو يجد أنّ هذه الثنائية أحدثت نوعاً من الاغتراب بأنواعه المختلفة فى شعره، فمنها الاغتراب المكانى، الاغتراب الروحيّ، الاغتراب الزمانى، الاغتراب من الناس والأعراف السائدة على المجتمع، والاغتراب السياسى والاجتماعى. أمّا الاغتراب الروحيّ من بين هذه الأنواع المختلفة فيمتّ بصلة وثيقة إلى هذه الثنائية، فالشاعر يرى أنّ الجسم فى هذا العالم الأرضى غريب، فيعتبر الجسم للروح نوعاً من السجن، فمن ثمّ يعبر عن طموحه إلى عالم مثاليّ نموذجيّ و من هذا الموقف يقترب الزّهّاد من المتصوّفين و «لا شكّ أنّ الوصول إلى هذا الفهم مرّ بمراحل وصل فيها مفهوم الزهد بصورته البسيطة إلى هذا المعنى الخاص لدى الصوفية عن غربة الرّوح في الجسد، بل في هذا العالم (أشرف علي،٢٠٠٢م: ٤٥). تذكّرنا هذه الفكرة بعقيدة أبى العلاء المعرىّ الذى سمّى نفسه رهين المحبسينِ أو رهين المحابس الثلاثة حيث قال فى ديوانه «اللزوميات»:

أَراني في الثّلاثةِ مِن سُجُوني ... فَلا تَسأَل عَن الخبرِ النبيثِ
لِفَقدي ناظِري، وَ لُزُومِ بيتي، ... وَكَونِ النَّفسِ في الجسدِ الخبيثِ

(المعرى،١٩٨٣م، مج١: ٢٤٩)

فعبر ناصر خسرو عن الاغتراب الروحى فى شعره أكثر من ثلاثين مرّة، فيقول:

زندان جان تست تن ای نـادان　　تیمارکار او چـه خـوری چندین؟

(قبادیانی، السابق:۴)

تنّین تســـت تنت حذر کـن زو　　زیرا بـــخورد خـواهدت ایـن تنّین

تـــــو بر مراد او به چه می تازی　　گاهی بـه چین و گاه بـه قسطنطین

بنگر که چیست بسته در این زندان　　زنده و روان به چیست چنین این طین

(المصدر نفسه:۸۹)

... زندان تو آمد پسرا این تن و، زندان　　زیبـا نشود گر چه بپوشیش به دیبا

(المصدر نفسه: ۴)

أی: أيُّها الجاهل، إنّ الجسم سجن روحک فلماذا تمرّضه هکذا؟. الجسم تنّینک فاحذر منه، لأنّه سیقضی علیک. لماذا تتعب نفسک فی قضاء حاجاته تارة فی الصین وتارة أخری فی قسطنطین؟. فانظر إلی أیّ شیء رُبط فی هذا السجن وبأیّ شیء یعیش ویحیی هذا الجسم؟. یا بنیّ، إنّ الجسم سجن روحک، فلا یتزیّن هذا الجسم وإن تُلبسه الحریر.

۳-۵- صلة الحياة والموت بالنزعة التأملية عند أبي العتاهية وناصرخسرو

الشیب یمهّد لأبي العتاهیة السبیل ویُتیح له الفرص المؤاتیة للتعبیر عن الإنابة والاستغفار مما اقترف فی عهد الشباب من الآثام والذنوب والإفصاح عن اللهو أیّامَ الشباب وما أعقبه من حسرة نتیجة لتغییر الأحوال وتقلّبها، فتعتبر القبور والمحادثة معها وبثّ الشکوی إلیهم من المظاهر التی تؤدی إلی التعزیة والتسکین فی نفسیة الشاعر، فنراه کثیراً یناجی القبور وما تحت الثری للتخفیف من خوفه رجاء الحصول علی العزاء والطمأنینة، فمناداة القبور مظهر من مظاهر المطالبة بالسکون والإفراغ النفسیّ مع أنّه یعلم مسبقاً أنّ هذه المناداة والمناجاة لاتؤدی إلی شیء سوی الحرمان والقنوط، فمن أجل ذلک تکوّن بینه وبین الأجداث حوار طویل ذات طابع حزین لکی یحصل علی النتیجة المعروفة وهي فقدان الاستقرار والخلود علی الکرة الأرضیة، فیقول:

إنّي سَأَلتُ القبرَ ما فَعَلَت　　بَعدي وُجوهٌ فیکَ مُنعَفِرَة

فَأَجـــابَني صَيَّرتُ ریحَهُم　　تُؤذیکَ بَعــدَ روائِحٍ عَطِرَة

وَأَکـــلتُ أجساداً مُنَعَّمَةً　　کـــانَ النَّعیـمُ یَهُزُّها، نَضِرَة

لَم أُبقِ غیرَ جَماجِـــمٍ عَرِیَت　　بِیضٍ تَـلـــوحُ وأَعـظُمٍ نَخِرَة

(أبوالعتاهیة،۱۹۶۵: ۱۷۷-۱۷۶)

یتضح لنا من خلال هذه المقطوعة أنّ الشاعر استخدم أسلوب الحوار لیضفی علی الشعر بُعداً دراماتیاً مستهدفاً ترسیخ المعنی لدی المتلقی فهذا الأمر مما یساعده علی تصویر أهوال الموت ومخاوفه حینما یشاهد القبور

والعظام النخرة. يدلّ هذا الأسلوب في طياته على الاستعداد المفاجئ للموت والتأهّب للتزويد بصالح الأعمال والإقلاع عن المعاصى والملاهى والإنابة إلى الله تعالى.

هذه المظاهر التي شاهدها الشاعر طيلة الحياة مما ساقته مساق التمتع بكل ما فيها من النعم والمتع كتثمير المال والانهماک فى الملذات والمغريات، فخلق هذا الشعور لديه باعثاً قوياً نحو التمتّع التامّ بكل لحظات الحياة المتوفرة والسبب بسيط وهو «أنّ الشاعر نفسه يمتلكه إحساس بأنّه لايعرف شيئاً، فكلّ ما يراه هو أنّ الزمن يعدو، وأنّ العمر يعدو معه، فينبغى أن ينهل من الشباب قبل أن يداهمه المستقبل بالهموم» (الصانع، ٢٠٠٠م: ٣٥).

يتضح من خلال هذه الأبيات أنّ مصير الإنسان بعد الموت وما ينتظره من ثواب أو عقاب هو من الموضوعات التى شغلت بال الشاعر، فظهر لديه نوع من النزعة التأملية فى الشعر، فمكافأة الأعمال، ثواباً كانت أو عقاباً، ساقته مساق العثور على كيفية مكانة الإنسان ومصيره فى الحياة الخالدة سائلاً عمّا ينتظره فى تلک الحياة، فإنها وقفة صادقة مع النفس فيها نزوع إلى التطهير وثقة بعفو الله تعالى وغفرانه، فيقول:

أَلا لَيتَ شِعري بَعدَ المِش يبِ لِلمَرءِ مِن غايةٍ تُنتَظَرُ

(المصدر نفسه: ١٦٢)

يعتبر التأمّل والتدبّر فى حقيقة الحياة والموت ومصير الإنسان فى الحياتينِ من البواعث الأخرى التى ساقت ناصرخسرو مساق إمعان النظر فى هذه الثنائية، فنراه يُكثر من تَرداد الأسئلة التى تحاول الكشف عن رموز الخلقة ومكانة الإنسان فيها طالباً العثور على هذا السرّ المختوم. يعتبر الشاعر الموت قضية فلسفية تقيم صلات وثيقة بمشاعره النفسية وتجاربه الدينية العميقة وامتزج فيها الإيمان الدينى بالفكر الفلسفى الذى تستميل النفس إليه بغية إدراک سرّ الحياة الكامن في ذاتها، وهذا الموضوع جعل موقفه تجاه الحياة يتحول من نظرة متشائمة إلى رؤية عميقة تدرک زوال الحياة الدنيا وعدم استقرارها ويؤمن بحتمية الموت وحقيقة الوجود، فيقول:

زين پسم باز كجا بـــرد همى خواهـــد چـــون برون آرد از اين خـــانه بيرانم؟
اندر اين خانه ستم كردم و خوش خوردم چون ستوران كه تو گفتى كه نه انسانم
چون نترسم كه چو جائى بـــروم ديگر بـــه بدِ خويش بيـــاويزم و در مـــانم؟
چون هـــم امروز نگويم كه چو در مانم به چنـــان جا كه كند دارو و درمانم؟
...خيزم اكنـــون كه از اين راز شدم آگه گردِ كـــــردار بـــد از جامه بيفشانم
پيشتر زانـــــكه از اين خانه بخـــوانندم نامـــــه خويش هـــم امروز فرو خوانم
هر چه دانـــم كـــــه برهنه شود آن فردا خيره بر خويشـــتن امروز چه پوشانم؟
بـد مـــــن نيكى گردد چـــو كنـــم توبه كه چنين كرد ايزد وعـــــده به فرقانم

(المصدر نفسه: ١٩٧-١٩٦)

...بنـــديش كـــه كـــــردگار گيتـــى از بـــــهر چـــه آوريـــدت ايـدر
بنگـــــر بـــه چه محكمى ببسته ست مـــــر جـــان تـــرا بـدين تن اندر

او راســـت بپـــای بـــی ستونـی ایـــن گنبـــد گـرد گرد اخضـــر

(المصدر نفسه: ۹۳)

أی: عندما متُّ فإلی أین سیذهب بی؟. لقد ظلمتُ نفسی فی هذه الدنیا ولهوتُ کالأنعام حتی تظنّ أنّنی لستُ بإنسان. کیف لا أخاف فی ذلک المقرّ حیث أُبتلیتُ بأعمالی السیئة؟. فأقرُّ الیومَ بأنّنی ندمتُ علی ما اقترفتُ، فمن یخلصنی من ذلک العناء والبلاء ذلک الیومَ ؟. عندما فهمتُ هذا السرّ ترکتُ الأعمال السیئة. أقرأ صحیفة أعمالی فی الدنیا قبل أن توافینی المنیة. عندما تبتُ تبدّل سیئاتی حسناتٍ کما وعدنی الله تعالی فی القرآن الکریم. لقد علمتُ أنّ الظالم والمقصّر یتعرّیان ذلک الیومَ، ففکّرتُ فیما ألبس هذا الیومَ؟. فکِّر لماذا خلقک الله تعالی؟. أُنظر کیف شدّ جسمک إلی هذه النفس!. إنّ هذه السماء الخضراء من غیر عمدٍ فی قبضته تعالی.

مما یجدر بالذکر أنّ الشاعر ینسب الأجل إلی علم الله تعالی فلا تدری نفسٌ بأیّ أرض وفی أیّ ساعة تفوز بلقاء ربّها، فهذه المسألة من الموضوعات التی فوّضها إلی الله تعالی، فیقول:

علم اجلها به هیچ خلق نداده ست ایزد دانـــی دادگستـــر ذوالمـــن

خلق همه یکسره نهـــال خدای اند هیچ نه بر کن تو زین نهال و نه بشکن

(المصدرنفسه: ۱۷۰)

أی: إنّ علم الآجال بیده الله العلیم العادل المتفضّل فلم یعطِه أیّاً من عباده. الأنام بحذافیرهم أغراس فی ید الله تعالی فلا تُؤذِهم ولا تقضِ علیهم.

إنّ الممعن فی شعر ناصرخسرو یجد أنّ الشاعر یعتبر الجهل والغفلة بمثابة الموت الحقیقی والتبصیر والیقظة والصحوة بمثابة الحیاة الحقیقیة، فحاول من خلال هذا الأمر تشویق المخاطب علی طلب الحکمة والمعرفة فی الحیاة ویعدّ المصادر الدینیة خاصة القرآن الکریم أمثل نموذج فی هذا المجال.

جدیر بالذکر أنّ الشاعر یرید من المتلقّی أن یبحث فی القرآن الکریم عن البقاء الخالد الأبدی، فهو من کنوز رحمة الله تعالی ومفتاح أسراره، فمن یُرد البقاء الحقیقی فعلیه التمسک بالقرآن الکریم وتعالیمه السامیة، فیقول:

ترا خـــــدای ز بهـــــر بقا پدیـد آورد ترا و خاک و هوا و نبات و حیوان را

بقا به علم خدا اندر است و، فرقانست سرای علم و، کلید و دَرست فرقان را

اگر به علم و بقا هیچ حاجتست تـرا سوی درش شتاب و بجوی دربـــان را

به جدّ او و بدو جمله بـــاز باید گشت به روز حشر همه مؤمن و مسلمان را

مـــر رسولِ رسول خـــــدای فرمان داد بـه مؤمنان که بدانند قدر فرمـــان را

(المصدر نفسه: ۱۱۸)

أی: لقد خلقک الله تعالی والسماء والأرض والنبات والحيوان من أجل البقاء. إنّ البقاء ينحصر فی الله تعالی والقرآن مفتاح البقاء وبابه. إن تحتج إلی العلم والبقاء فأسرع نحو بابه واطلب بوّابه. يرجع الجميع إليه من مؤمن ومسلم يومَ الحشر. قد أمر الرسول (ص) المسلمين أن يكونوا عارفين بقيمة الأوامر.

٣-۶- الحياة والموت الحقيقيانِ عند ناصرخسرو

كلّ من أمعن النظر فی شعر ناصرخسرو يجد أنّ فكرة الحياة والموت عنده ترافق العلم والجهل، فيری الشاعر أنّ الجهل والغفلة هو الموت الحقيقی والعلم والحكمة والصحوة هي الحياة الأبدية الخالدة محاولاً تحريض المتلقی علی كسب العلم والحكمة.

اتّضح لنا من خلال هذه الأبيات أنّ الشاعر رافق الحياة والبقاء بالعلم والجهل، فمن حُرم العلمَ فی الحياة الدنيا فهو الميّت الحقيقی. فالعلم هو الحياة الباقية والجهل هو الموت الأبدی، فمن ثمّ يجعل العلم فی مرتبة الإيمان والجهل فی مرتبة الكفر، ويقول:

نيست مرگ است و هست هست دانش — نيست كفرست و هست هست ايمان
مــرگ جـهلـــست و زندگـــی دانش — مــرده نـــادان و زنـــــده دانـــايان
جهل مــــانند نيست و علم چو هست — جهل چون دَرد و علـــم چون درمان
هــــست ماند به علـــم دانـــا مـــرد — نيســـت گردد به جـــاهلی نـادان
وانـــكه از نيـست هست كـــــردنـدش — او به راحـــت رسد هـــــی ز هـوان
نيست را هــــست صنـــع يزدان كرد — هســـت را نيست صنـعت شيطان
...آنچه دانـــا بدانـدش هــــستـست — كس نـــدانست نيست را سامـــان
هست و دانـش قـــرين و جفتاننـــد — نيسـت با جهـــل هـر دوان زوجـــان

(المصدرنفسه: ٢۴١)

أی: الموت هو الفناءُ والعلم هو الحياةُ، والفناء هو الكفر، والإيمان هو البقاء. الجهل هو الموت، والعلم هو الحياة، والجهّال هم الأموات والعلماء هم الأحياء. الجهل كالفناء والعلم كالحياة. الجهل كالداء والعلم كالعلاج. العالم يبقی ويعيش، والجاهل يفنی ويموت. فمن يحيی فهو يسير من الهوان نحو الرفاهية ورغادة العيش. إنّ الإحياء من أفعال الله تعالی والإفناء من صنيعة الشيطان. كلّ ما يعلمه العالِم فهو الحياة، فلا يعلم أحد حدود الفناء وثغوره. إنّ الحياة والعلم توأمانِ والجهل والفناء كالزوجينِ.

٣-٧- أثر المصادر الإسلامية فی فكرة الحياة والموت عند أبي العتاهية وناصرخسرو

الأمر الذي لا ريب فيه أنّ أباالعتاهية استقی معظم محاوره الشعرية من المصادر الإسلامية خاصة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، واستطاع أن يقرب نفسه وميوله الباطنية إلی الينابيع الإسلامية ويشرئبّ منها، وأمّا في الباطن «فقد ظلّ من طلّاب الدنيا ومتاعها الزائل، وظلّ يطلبها ويلحّ في الطلب إلحاحاً شديداً» (ضيف،

۱۹۶۶م: ۲۴۳). وهذا أمر يتضح من خلال قصائده حيث يعترف الشاعر بأنه ادّعى الزهد في الدنيا ولم يكن زاهداً بعينه قائلاً:

تَزاهَدتُ في الدُّنيا وَإِنّي لَراغِبٌ ... أَرى رَغبَتي مَمزوجَةً بِزَهادَتي
وَعَوَّدتُ نَفسي عادةً فَلَزِمتُها ... أَراه عَظيماً أَن أُفارِقَ عادَتي
إِرادةُ مَدخولٍ وَعَقلُ مُقصِّرٍ ... وَلَو صَحَّ لي عَقلي لَصَحَّت إِرادَتي

(أبوالعتاهية، ۱۹۶۵: ۷۱)

وجدنا في هذه المقطوعة أنّ الشاعر وظّف مصطلح (التزاهد) لما فيه من معنى الادعاء أو المحاولة، إلاّ أنّ رغبته في الحياة كانت أقوى وأكثر إلحاحاً، فكانت محاولته الزهدية تصطدم أحياناً بهذه الرغبة القوية في الإقبال على الحياة، إذ ليس من السهل عليه أن يتنازل عن عادات ألفها والتزم بها، فيفرض عليه الزهد والتقشف التخلّي عن تلک العادات وهو لذلک يقرّ بضعف إرادته وقصور تفكيره (عزالدين، ۱۹۷۵م: ۳۰۴).

ومن أجل ذلک امتلأ شعره بالعظات والدعوة إلى نبذ الدنيا ومغرياتها وفطام النفس عن شهواتها، فمن ثمّ اقترب شعره من شعراء الحكمة والأخلاق الذين يتسم شعرهم بطابع الحكمة والمكارم الأخلاقية ولا نجد لديهم بصمة من الزهد أو التقشف أو ما نجده من مظاهر الزهد عند الشاعر الزاهد.

بغضّ النظر عن ثنائية الحياة والموت لدى الشاعر، إنّ زهده لا يأتی بشیء جديد ولا يحمل فی ثناياه فلسفة جديدة ولا ينبي عن آراء وأفكار ترشد أبناء البشر نحو الفكرة الراقية سوى أنّه دعاهم نحو نبذ الدنيا ومغرياتها وعدم الافتنان بها والاهتمام بالحياة الآخرة. رغم أنّ الشاعر استقى معظم أفكاره الزهدية من المصادر الدينية كالقرآن الكريم والحديث النبوی الشريف، امتزجت آراؤه بالحكم والأسس الأخلاقية التي تصوّر أحسن تصوير ذلک الصراع المرير بين الخير والشرّ وبين الحياة والفناء. وهذا الصراع الذی افترش مساحة كبيرة من شعره كان ناجماً عن إكثار الشاعر من فلسفة الحياة والموت.

يُستنتج من ثنائية الحياة والموت فی شعر ناصرخسرو أنّ هذه الفكرة تنبع لديه من المصادر الأربعة وهی: التعاليم الإسلامية خاصة القرآن الكريم والحديث النبوی الشريف، التجربة الشخصية، إمعان النظر فی مصير الأقوام والملل البائدة والاعتبار بهم، وأخيراً الاعتبار بحياة الأولياء والأنبياء (عليهم السلام) خاصة النبی (ص) والإمام علی (ع) وفاطمة الزهراء (س)، فيری القارئ بوضوح أنّ معظم قصائده «تستهدف النقاش فی الموضوعات الدينية والدعوة إلى الإيمان والمعنوية وازدراء الدنيا والعزوف عن ملهياتها الفانية والتحريض على الصحوة والتقوى» (رضا زاده شفق،۱۳۵۲ هـ : ۲۵۴).

الشاعر يرى البقاء الحقيقی والحياة الباقية فی اجتماع الدين والدنيا والكمال والعقلانية والحكمة المطهرة التی تسير بالإنسان نحو دار السّلام. فاتخذ هذه الثنائية أداة للتبشير والإنذار والموعظة الحسنة فی الحياتينِ معتمداً فی

هذا السبيل على القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، فالشاعر كان على عقيدة دينية راسخة بأنّ الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر، ويقول:

بهشت كافر و زندان مؤمن　　　جهانست، اى به دنيا گشته مفتون

(قباديانى،۱۳۵۷: ۱۴۵)

... زندان مؤمنست جهان، من چنين　　　زيرا همى قرار به يمگان كنم

(المصد رنفسه: ۳۷۲)

أى: يا من اغترّ بالدنيا، الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر. العالم سجن المؤمن، فمن أجل ذلك أقمتُ بـ «يمكان».

النتيجة :

اتضح لنا من خلال ما سبق عن الصراع المرير بين الحياة والموت فى شعر أبىالعتاهية وناصرخسرو أنّ أباالعتاهية خاف من الموت خوفاً شديداً فحاول طيلة الحياة أن يتخلّص من براثن الموت فلم يعد يستطيع فبقى مستسلماً خاضعاً أمام قدرة الموت وجبروته فاتخذ الموت أداة للترهيب والتخويف. فى الحقيقة أنّ خوف الشاعر من الموت يصدر من مصادر عدّة، فمنها ما يعود إلى ما رأى فى زمن الحياة من المشاهد الدموية وتقتيل الأبرياء فى النظام السائد، ومنها ما يعود إلى ضعفه الجسمانى وما عانى أثناء الحياة من عقدة النقص والتعيير وضعة النسب. كلّ هذه العوامل جعلته خائفاً مضطرباً أمام الموت، فمن ثمّ يمثّل كلّ مظاهر الحياة من الشيب والعجز والفتور فكرة الموت والفناء. فمن أجل ذلك التجأ الشاعر إلى مظاهر الفناء والخلود وهذا ما خلق فى كيانه زوابع القلق والحيرة وشغل باله بالمغبة والمصير. أثارت هذه الثنائية في كيان الشاعر دوّامة مخيفة ومهيبة وصار الموت بمنزلة أمر محتوم لا بد منه، فمن ثمّ استخدم فكرة الموت في شعره الزهدى للحصول على غرضين هامّين وهما التخويف والترهيب ثمّ تسلية النفس والعزاء.

كذلك تطرّق ناصرخسرو إلى موضوع الحياة والموت فى شعره الحكميّ وتحدّث عنه فى تضاعيف ديوانه الشعرى. إذا أمعنا النظر فى أشعاره التى تمتّ بصلة إلى هذا الموضوع نجد أنّ ناصرخسرو لم يُبدِ أىّ ضعف أو قلق أو خوف أمام الموت وما ينتظر الإنسان فى الحياة الأخرى، بل تمسّك بتعاليم الإسلام السمحة وما جاء فى طيّاتها من هذا الموضوع فجعله هذا الأمر مطمئناً أمام قضية الموت. فضلاً عن ذلك يُعتبر ناصرخسرو داعياً دينياً فى الديانة الإسماعيلية فاستخدم أدبه عامّة وشعره خاصّة لبثّ المثل الدينية النبيلة وإسداء النصح والتزوّد بصالح الأعمال فى الحياة الدنيا، فمن أجل ذلك لا نجده قلقاً أو خائفاً سطوةَ الموت.

اختلطت ثنائية الحياة والموت لدى ناصرخسرو بالحكمة والعلم، فكلّ من يتحلّى بهما فهو حيّ وإن لم يكن بين أبناء جنسه، وهذا ناتج عن تَطوافه بين الأديان والشعوب المختلفة وسعة معرفته بالعلوم الشائعة في عصره.

الشاعر يريد بهذا أن يشوق المتلقي ويرغبه في اكتساب العلوم والمعارف خاصة فيما يمتّ بصلة إلى الثوابت الدينية النبيلة. على خلاف أبي العتاهية، عندما أمعنا النظر في تضاعيف أشعاره نجد أنه لايزال يُطلق اللسان في الإنابة والاستغفار إثر ما قدّم في أيّام الشباب من الذنوب التي أفدحت كاهله ويتساءل في نفسه عمّا سيحدث له في الحياة الأخرى، هل سَيُعدُّ في زمرة أهل الجنة أم سيُحلّ في السعير والنار؟. وأثار هذا الموضوع زوبعة في كيانه، والذي يسترعى انتباه الشاعر في الحياة الدنيا هو ما سينتظره في تلك الحياة الخالدة من العقاب أو الثواب. فمن هذا المنطلق، يوصي المتلقي دائماً بالتزهد والتنسک والقيام بالمجاهدات النفسية والتقشف واجتناب النواهى والإنابة ليوم القيامة، فمن ثمّ يعتبر التخويف وإسداء النصح من أهمّ أسسه الفكرية لدى المتلقين.

المصادر والمراجع

١- إديث، كريزويل،(١٩٩٣م)، «**تعريف بالمصطلحات الأساسية الواردة فى كتاب عصر البنيوية**»، ترجمة: جابر عصفور، الكويت: دار سعاد الصباح، ط١,

٢- أبوالعتاهية، إسماعيل بن قاسم،(١٩٦٥م)، «**أشعاره وأخباره**»، تحقيق شكرى فيصل، بيروت: مكتبة دار الملاح للطباعة والنشر.

٣- الأصفهانى، أبوالفرج،(١٩٨٦م)، «**الأغانى**»، شرحه سمير جابر، بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية.

٤- أشرف علي،الدعدور، (٢٠٠٢م)،«**الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة**»، القاهرة: دار نهضة الشرق، ط١,

٥- الترمذى، محمد، (د.ت)، «**سنن**»، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، القاهرة: مكتبة دار نهضة مصر، ط١.

٦- خلف الله، محمد، (١٩٤٧م)، «**دراسات فى الأدب الإسلامىّ**»، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٧- خليف، يوسف،(١٩٨١م)، «**تاريخ الشعر فى العصر العباسى**»، القاهرة: دارالثقافة للطباعة والنشر.

٨- زكريا، إبراهيم، (د.ت)، «**مشكلة الإنسان**»، مصر- فجالة: مكتبة مصر.

٩- سلامي، سميرة، (٢٠٠٠م)، «**الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري**»، دمشق: دار الينابيع، ط٢,

١٠- شاهين، سمير الحاج، (١٩٨٠م)، «**لحظة الأبدية**»، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١,

۱۱- الشورى، مصطفى عبدالشافى، (۱۹۹۵م)، «**شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية**»، بيروت: الشركة المصرية العالمية للنشر، ط,۲

۱۲- الصانع، عبدالله، (۲۰۰۰م)، «**الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام**»، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامّة، ط,۲

۱۳- ضيف، شوقي، (۱۹۶۶م)، «**تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)**»، بيروت: دار المعارف.

۱۴- عانوني، أسامة،(۱۹۶۶م)، «**أبوالعتاهية رائد الزهد في الشعر العربي**»، بيروت: المكتبة الأهلية.

۱۵- عبدالغني الشيخ، محمد، (۱۹۸۳م)، «**النثر الفني في العصر العباسي الأول اتجاهاته وتطوره**»، مصر: ديوان المطبوعات الجامعية.

۱۶- عدس، عبدالرحمن ونايفة قطامى، (۲۰۰۲م)، «**مبادىء علم النفس**»، عمان: دار الفكر، ط,۲

۱۷- عزالدين، إسماعيل، (۱۹۷۵م)، «**في الأدب العباسي الرؤية والفنّ**»، بيروت: دار النهضة العربية.

۱۸- العشماوى، محمد زكى،(۱۹۷۸م)، «**قضايا النقد الأدبى بين القديم والحديث**»، الإسكندرية: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط,۳

۱۹- الكفراوى، محمد عبدالعزيز،(۱۹۷۲م)، «**أسطورة الزهد عند أبى العتاهية**»، القاهرة: دار نهضة مصر.

۲۰- المعرى، أبوالعلاء أحمد بن عبدالله، (۱۹۸۳م)، «**اللزوميات**»، مج۱، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر.

۲۱- آربرى، آرتورجان،(۱۳۷۱ه)، «**ادبيات كلاسيک فارسى**»، ترجمه اسدالله آزاد، مشهد: معاونت فرهنگى آستان قدس رضوى.

۲۲- رضا زاده شفق، صادق،(۱۳۵۲ ه)، «**تاريخ ادبيات ايران**»، شيراز: دانشگاه شيراز.

۲۳- دفترى، فرهاد،(۱۳۷۵ ه)، «**تاريخ و عقايد اسماعيليه**»، ترجمه فريدون بدره اى، تهران: فرزان.

۲۴- زرین کوب، عبدالحسین، (۱۳۷۵ ه)، «**از گذشته ادبی ایران**»، تهران: انتشارات بین المللی الهدی، چاپ اول.

۲۵- قبادیانی، ناصرخسرو، (۱۳۵۷ه)، «**دیوان اشعار**»، به اهتمام مجتبی مینوی و مهدی محقق، تهران: دانشگاه تهران و مؤسسه مطالعات اسلامی مک گیل.

۲۶- مستوفی، هوشنگ، (۱۳۳۴ه)، «**شعرای بزرگ ایران از قرن سوم تا نیمه قرن پنجم**»، تهران: فردوسی.

۲۷- هرمان، اته،(۱۳۵٦ه)، «**تاریخ ادبیات فارسی**»، ترجمه رضازاده شفق، تهران: بنگاه ترجمه و نشر کتاب.

فصلنامهٔ لسان مبین(پژوهش ادب عربی)
(علمی -پژوهشی)
سال ششم،دورهٔ جدید، شمارهٔ هجدهم، زمستان ۱۳۹۳

کشمکش میان زندگی و مرگ در شعر ابوالعتاهیّه و ناصرخسرو*

عباس یدالهی
استادیار دانشگاه شهید چمران- اهواز
سردار اصلانی
استادیار دانشگاه اصفهان

چکیده

زندگی و مرگ یکی از موضوعاتی است که از دیرباز ذهن انسان را به خود مشغول کرده است. این مسأله یکی از موضوعات مهم در شعر زهد به شمار می آید و شعر تلاش کردند تا به حقیقت واقعی آن دست یابند. ابوالعتاهیه وناصرخسرو از جمله شاعران زهد در ادبیات عرب و فارسی به شمار می آیند و از این رو، در شعرشان توجهی خاص به این موضوع از خود نشان داده اند. این پژوهش به بررسی پدیده مرگ و زندگی در شعر ابوالعتاهیه و ناصرخسرو قبادیانی در چارچوب ادبیات تطبیقی می پردازد. شکی نیست که موضوع مرگ و زندگی یکی از مهمترین محورهای شعر زهد در میان شاعران زهد پیشه است. این دو شاعر در شعر زهدشان از مفهوم مرگ و زندگی پرده برداشتند. هر گاه نظری به شعر این دو شاعر بیندازیم در می یابیم که ابوالعتاهیه در طول زندگی اش به شدت از مرگ هراس داشت و تلاش می کرد که خود را از چنگال مرگ نجات دهد. اما نتوانست و در نهایت مرگ را به عنوان ابزاری برای بیان نصیحت و موعظه برگزید. ناصرخسرو نیز در شعر خود به این موضوع پرداخت و به حتمی بودن آن ایمان داشت، و در این زمینه بر مبانی دینی تکیه کرد و همیشه انسان را به توشه گرفتن از نیکی ها و آمادگی برای مرگ سفارش می کند.

کلمات کلیدی: حیات و مرگ، ابوالعتاهیه، ناصرخسرو، ادبیات تطبیقی.

---

* - تاریخ دریافت: ۱۳۹۲/۰۲/۱۶ تاریخ پذیرش نهائی: ۱۳۹۲/۱۰/۰۸

نشانی پست الکترونیکی نویسنده: **yadollahi -a@yahoo.com**